

البصرة.. بندقية الشرق

★ منظر من البصرة .. بندقية الشرق ★

بقلم: عبد الجبار محمود السامرائي

البصرة مدينة عربية إسلامية إحدى مدن العراق الشقيق ، وهي ذات ماض تليد عريق ، أسسها (عتبة بن غزوان) عام ١٦هـ ـ ٦٣٧م ، بأمر من الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه .

وكان للبصرة شأن كبير ، إذ كانت مركزاً إدارياً من الولايات الإسلامية ، ومدينة بمثل هذه الأهمية ، كان لا بد أن يتزايد السكن فيها . وقد بلغت أوج ازدهارها في العصر العباسي ، حيث كانت هي وضاحيتها الأبلّة مركز تجارة العرب البحرية التي بلغت الصين .



★ «المشاحيف» واسطة النقل النهرية البدائية ، وهي راسية على مياه شط العرب ★

لقد كانت البصرة مركزاً فكرياً مهماً حيث تحدثت كتب التاريخ عن مكتباتها العامة ومساجدها ، وقد أنجبت فطاحل العلماء والأدباء **كالحسن البصري ، والحريري** ، صاحب المقامات المشهورة ، **وابن سيرين وابن الجوزي** ، وعالم الفيزياء **الحسن بن الهيثم** .

تقع البصرة على الضفة الشرقية من **شط العرب** على بعد حوالي ٦٧ كلم من **الخليج العربي** ، و ٥٠ كلم عن الحدود العراقية الكويتية ، و ٥٤٩ كم إلى الجنوب الشرقي من بغداد .

وبفضل ما كان للبصرة من دور في تأريخ العرب المسلمين ، وما تحويه اليوم من آثارهم ، أصبحت محط اهتمام السائحين من العرب والأجانب ، الذين يحرصون دائماً على أن تكون البصرة في مقدمة برامج زياراتهم لمدن العراق التاريخية .

تسمية البصرة

ذكر صاحب القاموس وصاحب لسان العرب ، أن معنى البصرة الأرض الغليظة الرخوة الضاربة إلى البياض أو فيها بياض .

قال **ياقوت** في معجم البلدان : إنما سميت البصرة للحجارة البيضاء التي في المربد . وقال **أبو علي الغالي :**

سقى الله البصرة الوسمي من حبها
فإن بهامتي صدى لا يريمها

وقيل إن سبب تسميتها بالبصرة ، أن **(عتبة بن غزوان)** كتب إلى الخليفة **عمر بن الخطاب** رضي الله تعالى عنه ، يستأذنه في تمصيرها ، فوصفها له بقوله : إني أرى أرضاً كثيرة القضة في طرف البر إلى الريف ودونها منافع ، فيها ماء وفيها فضاء . فقال عمر : هذه أرض بصرة قريبة من المشارب والمرعى والمحتطب .

وليس من الغريب أن تكون البصرة تكبيراً لاسم القرية الآرامية التي عرفت هناك قبل الفتح الإسلامي باسم «**البصيرة**» كما أشار ياقوت .

وذكر **الشرقي بن القطامي** أن المسلمين حين وافوا مكان البصرة للنزول بها ، نظروا إليها



★ صياد يبحث عن السمك في مياه شط العرب ★

من بعيد وأبصروا الحصى عليها فقالوا : إن هذه بصرة ، يعنون حصبة ، فسميت بذلك .

وهناك أسماء أخرى عديدة أُطلقت على البصرة ، من بينها : خزانة العرب ، والثغر الباسم ، والفيحاء ، والعجوز النجراء . وكان **الحجاج بن يوسف الثقفي** يقارن بين البصرة والكوفة ، فقال : « الكوفة بكر حسناء ، والبصرة عجوز نجراء ، أوتيت من كل حلي وزينة ! » .

وسميت كذلك بـ (الرعناء) ، بسبب رطوبة هوائها وتقلبه لقربها من البحر على مشارف الصحراء . وكان **الفرزدق** أول من لقبها بالرعناء ــ سامحه الله ــ إذ قال منشداً في مربدها :

لولا أبو مالك المرجو نائله
ما كانت البصرة الرعناء لي وطنا

ما قبل الإسلام

كان النشاط التجاري الذي يتمركز في **فُرضة الأُبُلّة** يجذب القوافل التجارية العربية إلى هذه البقعة التي عرفها العرب قبل الإسلام .

ومن المرجح أن بداية سوق البصرة الشهير بـ (**المربد**) ترجع إلى فترة مبكرة . وكون هذه السوق تقع على طرف الصحراء غربي البصرة ، قد يقوم شاهداً على نمو هذه السوق مستقلاً عن المدينة وسابقاً لنشأتها .

ومن الجائز أن السلطات الفارسية المحتلة في سعيها لدرء خطر هؤلاء المقيمين من العرب وإبعادهم عن الاتصال المباشر بالمناطق المأهولة ، قد حدد مكان السوق على طرف الصحراء بهذه الكيفية ، ومن ثم عرفت المربد بـ (**باب البادية**) .

لقد كانت منطقة البصرة تضطلع بدور مهم في حياة شبه جزيرة العرب قبل الإسلام ، فقد كانت إغارات الأعراب في صحرائهم المجاورة متصلة على القرى والمسالح والحاميات الفارسية . ولقد اتخذت تلك الإغارات شكلاً منظماً ، خاصة بعد الانتصار العربي الكبير الذي حققه **بنو بكر بن وائل في معركة ذي قار** (حوالي سنة ٦١٠م) ، حين هزموا

القوات الساسانية في ميدان المعركة، وراحوا يغيرون من بعد على الأطراف الغربية للإمبراطورية الساسانية.

صدر الإسلام

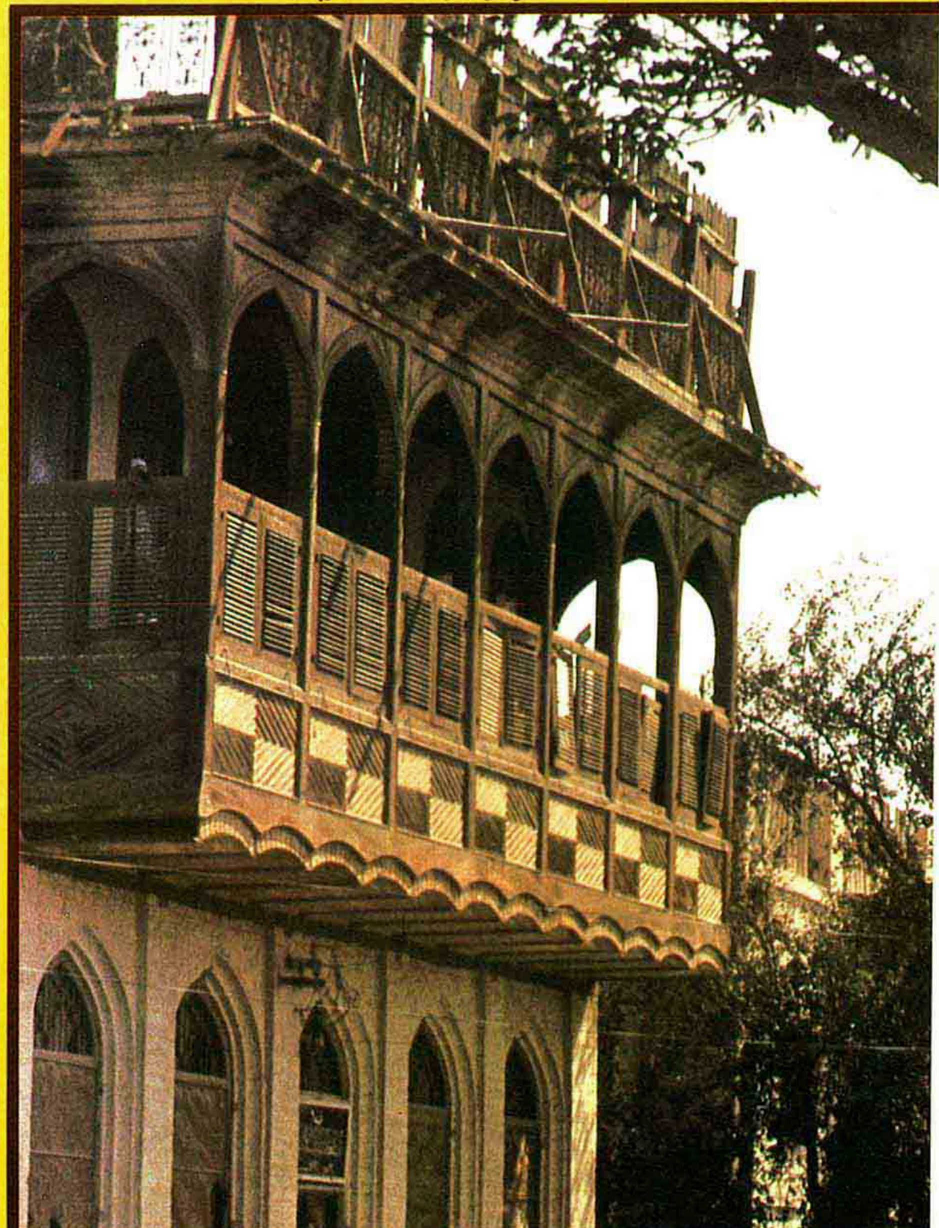
ولا بد أن العرب المجاورين للفرس، وبخاصة بني بكر بن وائل، كانوا لخبرتهم الطويلة في الإغارة على أطراف الإمبراطورية الفارسية أسرع من غيرهم في مهاجمة الإمبراطورية. وقد واصلوا تلك الإغارات على المناطق القريبة منهم، بعد أن أخلى **خالد بن الوليد** هذه المناطق وذهب إلى **الشام**، وكان قائد تلك الإغارات **سويد بن قطبة العجلي**. وقد جلبت حركات سويد هذه أنظار **الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه**، فأرسل **شريح بن عامر** ليكون ردءً – أي احتياطياً – له. وقد انضم شريح إلى قوات سويد، وظل يكافح حتى قتل بـ (**دارس**) في إحدى إغاراته على **الأحواز**.

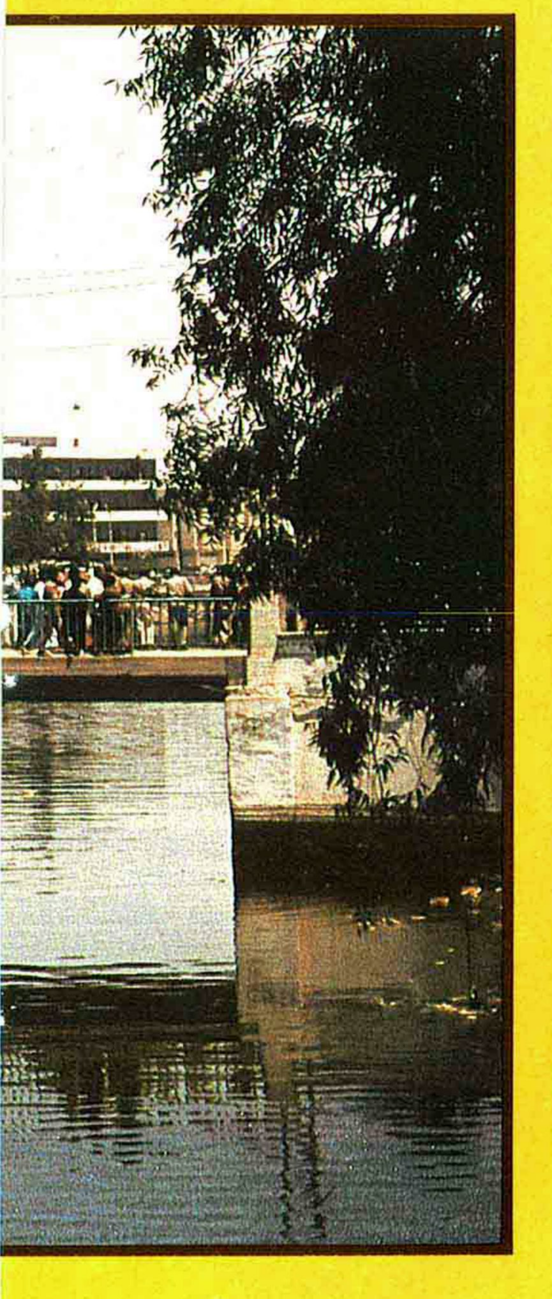
وعندما بلغ الخليفة مقتل شريح وما آل إليه أمر المنطقة من الفوضى، رأى أن يوليها لقائد عرف بالقوة والإدارة هو **عتبة بن غزوان** في ربيع الأول سنة ١٤هـ، ليقود الحركات العسكرية في تلك المنطقة.

وكان في المنطقة ثلاثة منازل هي: الخريبة والزابوقة وبني تميم، ففرق (عتبة) أصحابه فيما نزل هو بالخريبة، وكانت مسلحة للأعاجم، لكنها خالية منهم منذ أن فتحها خالد بن الوليد في سنة ١٢هـ، فأخبر (عتبة) الخليفة بذلك، فكتب إليه يأمره أن يتخذ لهم موضعاً قريباً من الماء والمرعى ولا يفصله عنهم بحراً أو نهراً. فأقبل إلى موضع البصرة فاختطه، وكانت البصرة تسمى يومذاك (أرض الهند).

ويتضح لنا من ذلك، أن العوامل الأساسية في إنشاء مدينة البصرة، كانت

★ الشناشيل من مميزات البيت البصري ★





عسكرية محصنة ، تمثلت في رغبة السلطة بانتقاء العوائق الطبيعية بين العاصمة (المدينة المنورة) والمصر الجديد ، فأريد لهذا المصر أن يكون قاعدة تموين وعدة وإمداد ، وظهيراً لحملات تحرير العراق من براثن الفرس ، فقد تحكمت الضرورات العسكرية في اختيار الموقع وما تلاه من خطط ، وكان هدف العرب الأول هو محاصرة القوات الساسانية ، في المنطقة ومنعها من الإمداد إلى الشمال ، والتي كانت تواجه زحف العرب المسلمين الكبير على مواقعها .

كما كان واضحاً أن موقع البصرة على أطراف الصحراء أضمن للسلامة إن دعت الضرورة للانسحاب ، في الاتصال السريع بداخل الجزيرة العربية لمواجهة أي خطر فارسي داهم على ساكني البصرة .

ويلاحظ أنه بعد انتصار العرب المسلمين السريع في شمال السواد (العراق) أي في **واقعة القادسية والمدائن وجلولاء** على التوالي ، قد استأنفت القوات الإسلامية التي كان يقودها عتبة بن غزوان مهاجمة حاميات الفرس على نهر دجلة شمال الأبلة ، من معسكر البصرة ، وأجبرت المدافعين عن **ميسان ، ودست ميسان وأيرقباذ** ، على الفرار .

ولما توفي عتبة بن غزوان في عام ١٦ هـ ، ولى الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه ، **المغيرة بن شعبة** على البصرة . ولكن تطور البصرة الحقيقي حدث في ولاية **أبي موسى الأشعري** سنة ١٧ ــ ٢٩ هـ ، (٦٣٨ ــ ٦٥٠ م) ، وقد استوطن أشراف العرب في المنطقة .

لقد كانت غاية هذا التطور خدمة الأغراض الحربية للجيوش العربية الإسلامية التي انطلقت من جزيرة العرب لتحرير العراق من سيطرة الفرس . ومن الواضح أن قسماً كبيراً ممن استقروا بالبصرة شرع منذ البداية في إقامة أسس ثابتة لمجموعة حضرية مستقرة لا تؤثر عليها

★ جانب من مدينة البصرة ★





★ أقدم الأشجار في مدينة البصرة ★

تحركات الجيوش . ومع أن البصرة ظلت تحافظ في طبيعتها ووظيفتها العسكرية لأكثر من قرن ، إلا أن هذا القسم المستقر من السكان ، هو الذي ترك أثره الواضح على تاريخ الإسلام في تلك المرحلة التكوينية .

عهد الأمويين

اهتم الأمويون بالبصرة كثيراً ، لخطورة موقعها الاستراتيجي ، ولكونها وسطاً بين سورية والحجاز وبين النهرين (**دجلة والفرات**) وفارس ، ولذلك اتخذوها في بعض الأحيان مقراً لإمارة العراق . فازدحمت بألوف التجار وأهل الصناعة والمعارف ، وطار صيتها في الآفاق حتى عظم شأنها ، وأصبحت من أعظم بلاد العروبة والإسلام في عهدهم ، واشتهرت بالسعة والعمران وكثرة الخيرات . وظل السعد يخدم البصرة حتى سماها العرب (خزانة العرب) .

وكانت البصرة في هذا العهد مهداً للعلوم والفنون والآداب ومركزاً للتجارة والصناعة ومجتمعاً لكبار العلماء والفقهاء والفلاسفة والشعراء .

عهد العباسيين

وعندما قامت دولة بني العباس في ١٣ ربيع الأول سنة ١٣٢ هـ ، واتخذ **أبو العباس السفّاح** مدينة الكوفة مقراً له ، بعث في السنة ذاتها عساكره لأخذ البصرة من الأمويين ، فانسلخت منهم على يد القائد **سفيان بن معاوية بن يزيد بن المهلب** ، بعد معركة دامت سبعة أيام .

وفي عهد الخليفة **هارون الرشيد** ، وصلت البصرة إلى أرقى درجات الرقي ، وصارت من أكبر مدن الإسلام ، وزادت عمارتها وكثرت ثرواتها .

وبعد أن ضعفت الدولة العباسية ، بدأت البصرة بالانحطاط ، وخاصة في عهد **بني بويه** الفرس ، وأيام **السلاجقة** ، وفي العهد العباسي الأخير ، حتى أصبحت في القرن السابع الهجري ، لا تزيد على ثلاثة محلات !

ثم توالت النكبات على البصرة ، فقد أغار عليها **الخوارج** حتى اضطر من بقي من أهلها إلى الهجرة ، فتركت وخربت عام ٧٠١ هـ ، عن آخرها ، وكان سبب خرابها : ظلم الولاة

واستبدادهم فيها ، وهجمات الأعداء عليها .

الفترة المظلمة

وبعد أن مات الخليفة العباسي **الظاهر** في سنة ٦٢٣ هـ ، وجلس مكانه **المستنصر بالله** على دست الحكم ، اجتاح **المغول** بغداد حاضرة الدولة العباسية ، بقيادة السفاح **هولاكو** ، سنة ٦٥٦ هـ ، (١٢٥٨ م) ، وقضى على الدولة قضاءً تاماً . فتخربت البصرة مثلما تخربت بغداد ، وفر أهل البصرة من المذابح ، ولم تبق إلا دور قليلة .

وبعد غزوة **سليمان الأول التركي** لبغداد عام ٩٤١هـ ــ ١٥٣٤ م ، انتقلت البصرة إلى الحكم التركي ، واستطاع **أفراسياب** أن يكوّن أسرة مستقلة بالبصرة ، وهو من أهلها الأقوياء ، وذلك منذ القرن السابع عشر الميلادي .

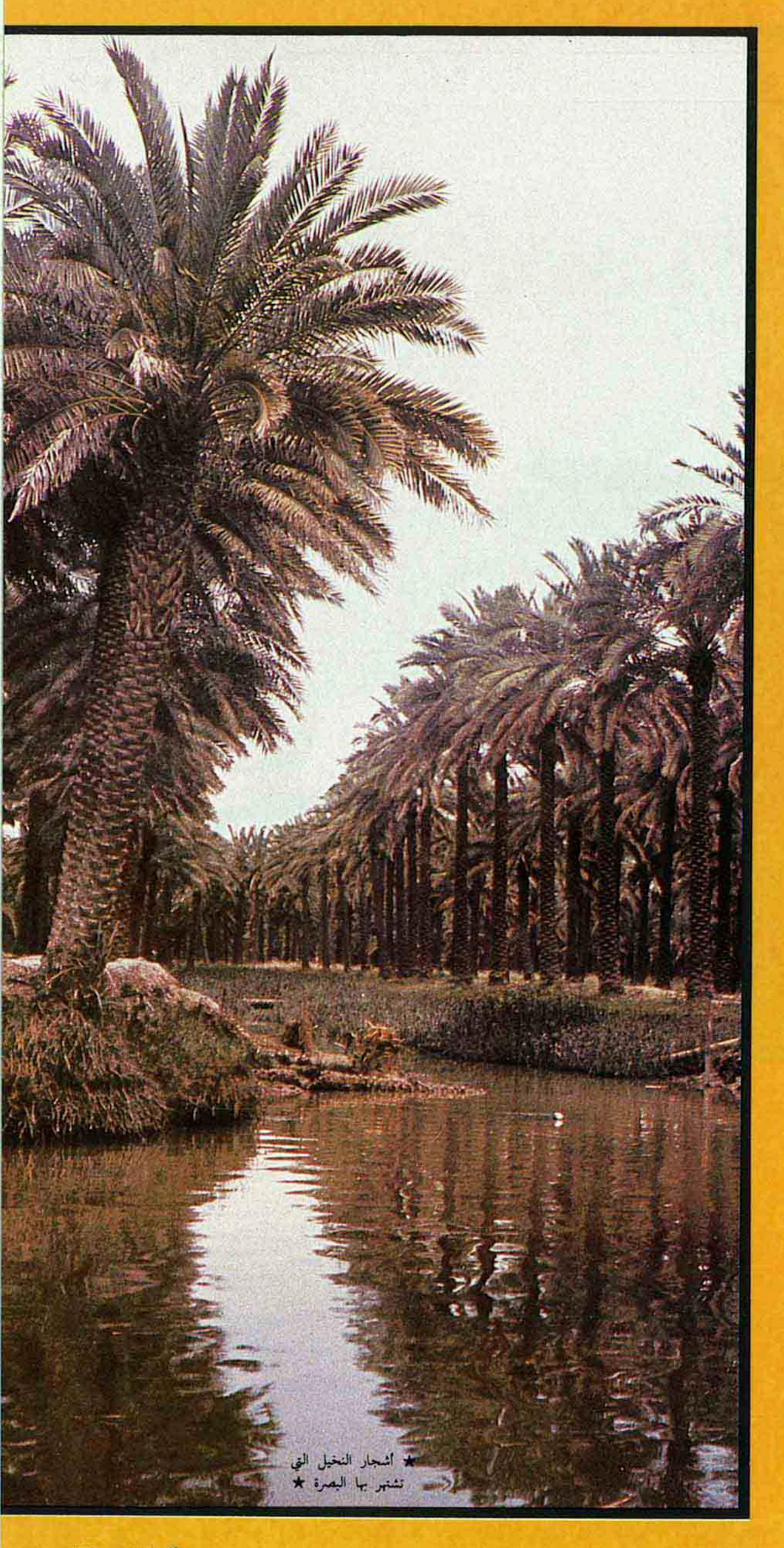
وفي عهد تلك الأسرة وتحت حمايتها ، فتحت البصرة ميناءها للتجارة الأوروبية .

وظلت البصرة بيد الترك ما عدا الفترة التي احتلها فيها **محمد علي باشا** من عام ١٨٣٢ م ، إلى عام ١٨٤٠ م .

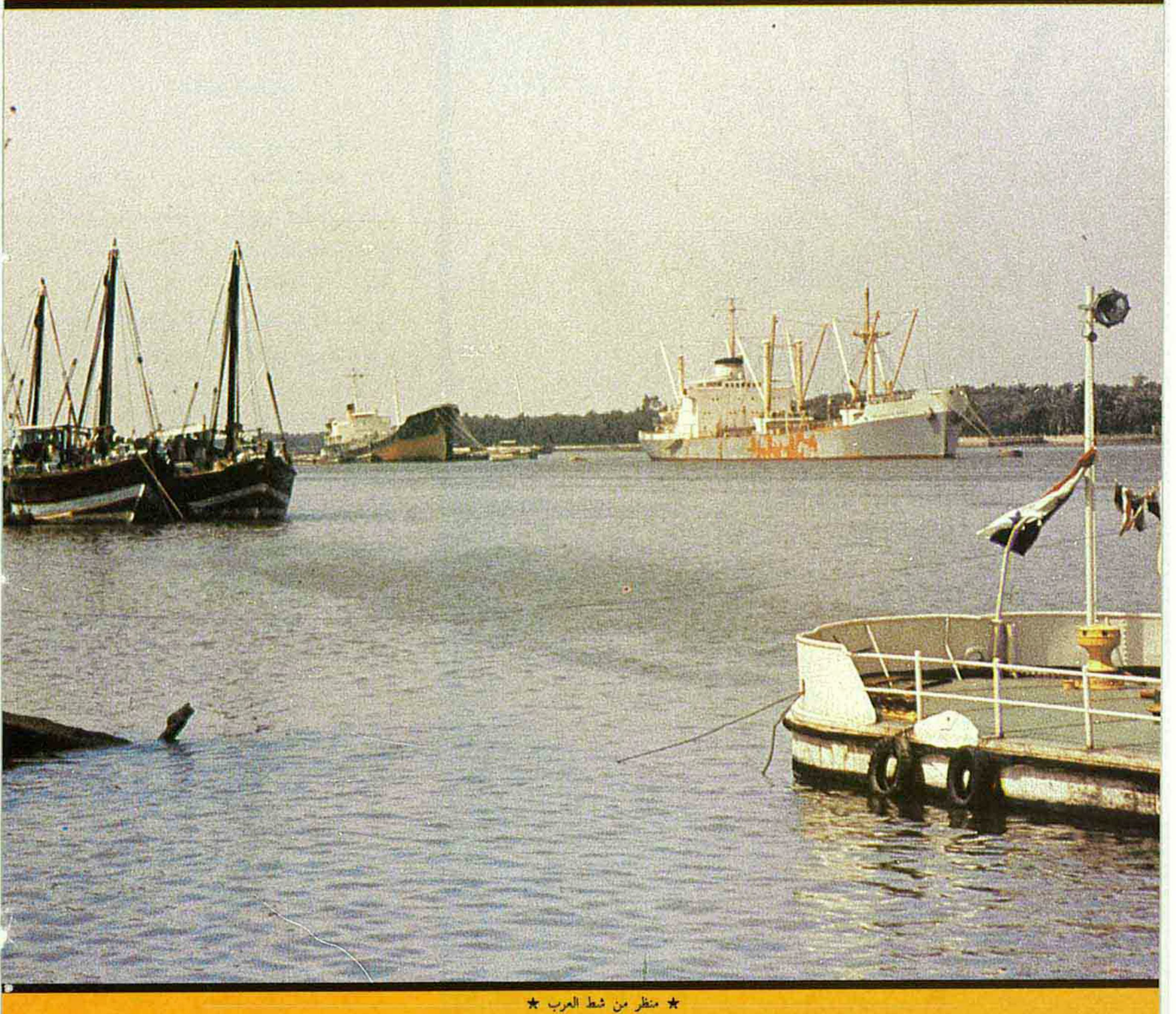
ولقد كابدت البصرة في عهد السلطنة العثمانية من التأخر والجهل طويلاً ، وبقيت مهملة ، قليلة السكان ، شحيحة الرزق ، شأن أخواتها مدن العراق ، التي كانت ترزح تحت نير الحكم العثماني . وقد لاقى أهل البصرة صنوف الاضطهاد والتعسف على أيدي الولاة والحكام والقادة العثمانيين .

وتعرضت البصرة في هذا العهد إلى غزو الفرس مراراً وتكراراً ، ثم استعادها العثمانيون .

وفي أواخر الحكم العثماني ، أولت **(بريطانيا)** البصرة اهتماماً خاصاً لأهميتها الاستراتيجية ، وابتدأ الصراع الخفي بينها وبين **ألمانيا** ، انتهى برجحان كفة الإنجليز ، وبتغلغل نفوذهم ، بفضل قربها من **الهند** ، وموقعها الجغرافي المتاخم لـ **(عبادان)** وإمارات الخليج العربي . وانتهت تلك الأطماع



★ أشجار النخيل التي تشتهر بها البصرة ★



★ منظر من شط العرب ★

أخيراً ، باحتلال البصرة من قبل الجيوش البريطانية سنة ١٩١٥م ، تمهيداً لاحتلال العراق كله فيما بعد .

البصرة اليوم

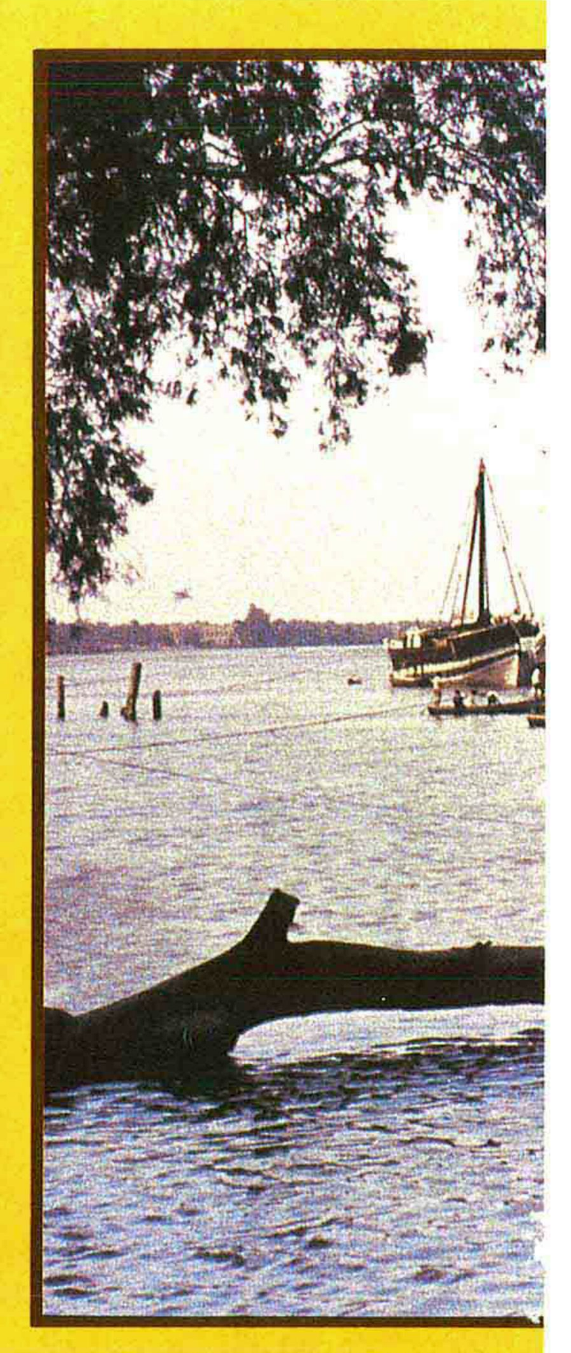
أما البصرة اليوم ، فهي مدينة ضخمة تتخللها شوارع فسيحة ، وتقطعها حدائق واسعة وتخترقها الأنهار والقنوات ، مما أكسبها بحق اسم (**بندقية الشرق**) . وهي تقسم إلى ثلاث مناطق سكنية هي : **البصرة** ، **العشار** ، **المعقل** .

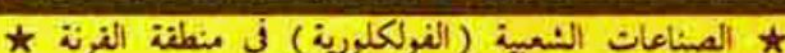
والبصرة ببنائها الهندسي القديم شرقية الطراز ، وبعمرانها الحديث غربية . ولكن توسع العمران فيها فرض الطراز الحديث .

ومدينة البصرة الحديثة ، وسط حزام من النخيل ، ويصلها بشط العرب القناة المعروفة بـ « **نهر العشار** » ، وهي التي أطلق عليها الأوروبيون اسم القناة الكبيرة لمدينة البندقية العربية .

وتلعب البصرة اليوم دوراً هاماً في اقتصاد العراق كله .. فهي ميناء العراق ومنفذه على البحر . وكان العراق ــ قبل الحرب مع إيران ــ يصدر منتجاته عن طريق ميناء البصرة إلى جميع أنحاء العالم ، وكان يستقبل السلع التي يحتاجها من مختلف دول الشرق والغرب .

وتشتهر البصرة بالتمور على مختلف أصنافها ، وتنتج حوالي (١٣٠) ألف طن سنوياً ، وإن هذا الرقم أكثر من نصف إنتاج العراق كله من التمور على مدار السنة . **وقدروا عدد أشجار النخيل في البصرة ، فوجدوها تزيد على أربعة عشر مليون نخلة من مجموع عدد النخيل في العراق كله ، والبالغ حوالي (٣٠) مليون نخلة .**




★ الصناعات الشعبية (الفولكلورية) في منطقة القرنة ★

جزيرة السندباد

وهي من المناطق السياحية الرائعة في البصرة . تقع وسط شط العرب ، مقابل فندق شط العرب في (**المعقل**) ، وترتبط بضفتي الشط بجسر السندباد . فيها حدائق واسعة مزينة بنافورات جميلة وأشجار باسقة ، وفيها منشآت لراحة الزائر ، منها كازينو سياحي ودور سياحية للإقامة . هذا بالإضافة إلى الفندق العائم الراسي قرب الجزيرة والكازينو الواسع الذي أنشئ في الطرف الجنوبي من الجزيرة .

أهم آثار البصرة

إن أهم ما ينبغي ذكره من الآثار في البصرة ، بقايا مدينة البصرة القديمة والمسجد



الجامع الذي يعرف باسم **جامع الإمام علي**، أنشئ في السنة الرابعة للهجرة.. إلى جانب بعض المعالم التاريخية.

شناشيل البصرة

تتميّز البصرة، وخاصة مبانيها القديمة، بالشناشيل، والشناشيل هي النتوءات والبروزات التي تظهر في الطابق الأول فقط، لغرض تصحيح شكل الطابق الأرضي غير المتجانس إلى شكل متجانس ذي زوايا قائمة، وبالتالي غرف الطابق نفسه إلى غرف ذات أضلاع متوازية ومتعامدة، وهذا مما جعل بعض هذه البروزات ذات أشكال غريبة مثل أسنان المنشار. ومهمة هذه الشناشيل، حفظ جدران الطابق الأرضي من أشعة الشمس الحارة في الصيف.

تصنع الشناشيل من الخشب، وذلك لتخفيف الوزن على الجدران المعقودة في الطابق الأرضي. لذا نرى أن الشناشيل من الخارج توازنها ممرات بارزة (على شكل بالكون) عن الجدار مطلة على الفناء التي لها عمل الشناشيل نفسها في الصيف، أما في الشتاء، فتحافظ على الغرف وشبابيكها المطلة على الفناء من أشعة الشمس والمطر.

أما شبابيك الشناشيل، فتكون عادة من النوع المنزلق عمودياً، وذلك لتلافي تبذير قسم من الغرفة، ولصعوبة فرش الغرفة، وخاصة بجانب الشبابيك نفسها، والتي كانت المنفذ الوحيد لنظر نساء الدار، وهذا مما جعلها ذات زخارف مشبكة لمنع المارة في الطريق من التعرف على الشخص الناظر أو الجالس بالقرب منها.



●● أهم المراكز الحضارية في البصرة ●●

التسلسل		سنة التأسيس	المعلومات
١	جامعة البصرة	١٩٦٤م	أنشئت هذه الجامعة تلبية لاحتياجات المنطقة الجنوبية من العراق ومنطقة الخليج العربي إلى التعليم العالي.
٢	مركز دراسات الخليج العربي	١٩٧٤م	أُنشئ لغرض تعزيز وتنمية الدراسات المتعلقة بمنطقة الخليج العربي وتوفير المراجع والمصادر المتعلقة بهذه المنطقة. ويصدر مجلة نصف سنوية ويطبع كتباً خاصة.
٣	متحف التأريخ الطبيعي	١٩٧٢م	لدراسة النواحي البيولوجية الخاصة بالمنطقة الجنوبية والخليج العربي وتنميتها.
٤	مركز علوم البحار	١٩٧٥م	لدراسة واستغلال المياه الداخلية للبلاد ومياه الخليج العربي. ويقدم الخدمات الجيولوجية وإبداء المشورة والعون العلمي والتكنولوجي للمؤسسات المختصة.
٥	القُبة السماوية	١٩٧٧م	لدراسة كل ما يتعلق بعلوم الفلك والكون وما يحتويه من مجرات إضافة إلى مجرتنا (درب التبانة) التي تقع ضمنها مجموعتنا الشمسية والكواكب السيّارة. وكذلك دراسة الظواهر الطبيعية كالخسوف والكسوف.

★ المراجع المعتمدة ★

١ ــ مصطفى عباس الموسوي: العوامل التأريخية لنشأة وتطور المدن العربية الإسلامية، منشورات وزارة الثقافة والإعلام ــ بغداد/ ١٩٨٢م.

٢ ــ دائرة المعارف الإسلامية، الجزء الثالث، الترجمة العربية، مادة (بصرة).

٣ ــ سليمان فيضي: البصرة العظمى، (عني بنشره الدكتور عبد الحميد فيضي).

٤ ــ حامد البازي: البصرة في الفترة المظلمة، (منشورات البصري)، بغداد ١٣٨٩هـ.

٥ ــ السيد عبد الرّزاق الحسني: العراق قديماً وحديثاً، مطبعة العرفان ــ صيدا، الطبعة الثالثة ١٣٧٧هـ ــ ١٩٥٨م.

٦ ــ المؤسسة العامة للسياحة: العراق ــ دليل سياحي، طبع بلغراد ١٩٨٢م.

٧ ــ منير نصيف: البصرة ــ مدينة التمر والنفط، مجلة (العربي)، العدد ١٤٠، يوليو (تموز) ١٩٧٠م ــ الكويت.

٨ ــ العديد من المجلات والصحف والنشرات العراقية.

٩ ــ المعلم بطرس البستاني: كتاب دائرة المعارف، مادة (البصرة).

١٠ ــ الدكتور أحمد شلبي: التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، الجزء الأول، الطبعة الخامسة ــ القاهرة ١٩٧٠م.

★★